٥٨ بينَ البُخْل والتَّبذير

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

نشد الله عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد ، فقال لأحدهما : « أي فلان » ، فقال : لبيك رب وسعديك . قال : « ألم أكثر لك من المال والولد ؟ » قال : بلى أي رب ، قال : « فكيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ » قال : تركته لولدي مخافةَ العيلةِ عليهم . قال : « أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ولبكيت كثيراً ، أما إن الذي تخوفت عليهم قد أنزلته بهم » .

ويقول للآخر : « أيْ فلان بن فلان » ، فيقول : لبيك أي ربّ وسعديك قال : « ألم أكثر لك من المال والولد ؟ » قال : بلى أي رب ، قال : «فكيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ » قال : أنفقته في طاعتك ، ووثقت لولدي من بعدي بحُسن عدلك ، فقال : « أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، أما إن الذي وثقتَ لهم قد أنزلته بهم » [١]

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢ / ٢٠٥) من حديث عبد الله بن مسعود.

يقول الرحمن عزَّ وَجَلَّ عن عباد الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وموقفهم هذا هو تحقيقٌ لجانب من جوانب قِوَامة منهج الله فى مجال الإنفاق ، وتصرُّف المرء فى ماله ، والمتأمل فى هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً ، لا تبذيرَ فيه ولا تقتير .

ولا شكَّ أن الإنسان بطبعه يحب أنْ يُثرى حياته ، وأنْ يرتقى بها ، ويتمتع بترَفِها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذِّراً ، لا يُبْقِى من دخله على شىء، بل لا بُدَّ له من الاعتدال فى الإنفاق حتى يجدَ فى جُعْبته ما يمكنه أنْ يُثرىَ حياته ويرتقى بها ، ويُوفِّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

فللإنسان فى حياته طموحاتٌ تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثرتْ فيه المُغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلَّع لمَا هو أكبرُ منه ، فعليه إذن ألاَّ يُبدِّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلامُ عن التبذير نهى أيضاً عن البخل والإمساك ، لأن البُخْل مذمومٌ ، والبخيل مكروهٌ من أهله وأولاده ، كما أن البخلَ سببٌ من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالمُمسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخله فى تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذن : فالتبذير والإمساك كلاهما طرفٌ مذموم ، والخير في أوسط الأمور وهذا هو الأقوم الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي .

والتبذير مأخوذٌ من البَذْر ، وهو ما يقوم به الفلاَّح ، فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ، فإذا كان مُتقناً للأمر تجده يبذر البذور بنسَب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافةُ بين البذور متساويةً .

وبذلك يعطى الزرعُ المحصولَ المرجوَّ منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهى كثيرة فى مكان ، وقليلة فى مكان آخر ، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً ؛ لأنه يضع الحبوب فى موضع غير مناسب ، فهى قليلةٌ فى مكان ، مزدحمةٌ فى آخر فيُعاق نموُّها .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء] لأن المبذِّر يضع المالَ فى غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء فى غير ما يلزم ، فى حين يُمسك فى الشىء الضرورى .

إذن : التبذير هو صَرْف المال فى غير حِلِّه أو فى غير حاجة أو ضرورة .

وقد فسَّر عبد الله بنُ مسعود وعبد الله بنُ عباس التبذيرَ بأنه الإنفاقُ فى غير حقٍّ [1] وقال مجاهد : لو أنفق إنسانٌ ماله كله فى الحق لم يكُنْ مُبذِّراً ، ولو أنفق مُدّاً [2] فى غير حَقٍّ كان مُبذِّراً [1] .

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٦) .

(٢) المُد : نوع من المكاييل ، وهو ربع صاع ، وهو قدر مد النبى ﷺ ، والصاع : خمسة أرطال . والصاع : أربعة أمداد . [لسان العرب - مادة : مدد] .

فليس التبذير هو الكثرة والقلة فى الإنفاق ، بل هو موضع الإنفاق ، ومن ثَمَّ كان المبذّرون إخوانَ الشياطين ، لأنهم ينفقون فى أوجه الباطل والشرِّ والمعصية ، فهم رفقاء الشياطين وصحابهم .

﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

لأنه لا يؤدى حقَّ نعمة الله كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حقَّ نعمة الله عليهم وحقُّها أنْ ينفقوها فى الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين.

فالكون الذى تعيش فيه لك فيه مصالح ، وتراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة ، واكتسبتَ المال الذى هو عَصَبُ الحياة ، فعليك أنْ توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبتَ فى نفقاتك الحاضرة ، فقد ضيَّعْتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة ، وهذا ما نسميه الإسراف.

لذلك يقعد مَلُوماً محسوراً ، يلوم نفسه على ماله الذى ضيَّعه ، الذى استنفد منه عمراً وجهداً وصحة ، لن يعود الزمان به ليُعوِّض شيئاً منها ، يتحسر على ما فرَّط فى حقِّ نفسه .

ورسول الله ﷺ يقول فى فضيلة القصد فى المعيشة وعدم الإسراف :

---

(١) نقله ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٦) .

((من فقه الرجل رفقه فى معيشته)) [1]

وقال نبى الله ﷺ : ((ما عَالَ مَن اقتصد)) [2]

أى : ما افتقر واحتاج مَن اقتصد فى معيشته ، فكان وسطاً بين الإسراف والتقتير ، والتبذير والبخل ، فيضع ماله حيث تكون الضرورة والنفع ، فلا يكُنْ الإنسان جاحداً لنعمة الله عليه غير آبه بها ، فيضيع ماله فيما حرَّم الله ، أو فيما لا يفيد ، ويترك أهله ومَنْ يعولهم يتكففون الناس .

ولا يكُنْ قانطاً يائساً يظن أن الله لن يرزقه إنْ هو أنفق ، ولذلك يقول تعالى فى نفس الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فليعلم العبد أن الرازق هو الله ، هو الذى يبسط الرزق ويُوسعه ، وهو الذى يَقْدِر الرزق ويُضيِّقه ، هو الذى يعطى الرزق ، فلا تخْشَ من ذى العرش إقلالاً .

والحق سبحانه يعطينا ملحماً آخر للإسراف فى مجال آخر لتوجيه القائمين على أموال اليتامى ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا [3] أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ١٩٤) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٤٤٧) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠ / ١٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) بادر الشىء مبادرة وبداراً وابتدره وبدر غيره إليه : عاجله . [لسان العرب - ==

فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء]

فعندما يبلغ اليتيم الرُشد ، وقد تم تدريبه على حُسْن إدارة المال ، وعرف الوصيُّ أن اليتيم قد استطاع أنْ يدير ماله ، ومن فَوْر بلوغه الرشد يجب على الوصيِّ أنْ يدفع إليه ماله ، ولا يصحّ أنْ يأكل الوصيُّ مالَ اليتيم إسرافاً .

فالحق سبحانه يحذرنا من الإسراف فى مال اليتيم فى أثناء مرحلة ما قبل الرُشْد ، وذلك خوفاً من أن يكبر اليتيم ، وله عند الوليِّ شيءٌ من المال . أى أن يسرف الولى فينفق كل مال اليتيم قبل أنْ يكبر اليتيم ويَرْشُد ، والله سبحانه وتعالى حين يُشَرِّع فهو بجلال كماله يشرع تشريعاً لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد .

والمسرف سفيه ، لا صلاحَ له فى عقل ، ولا يستطيع أن يُصرِّف ماله بالحكمة ، مما يذهب بالمال ويفسده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾ [النساء]

ومثل هذا السفيه أو المُبذِّر لا سلطةَ لأىِّ منهما فى المال ، بل سلطة

== مادة بدر] . وقال ابن كثير فى تفسيره (١ / ٤٥٣) : ((ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافاً وبداراً) أى : مبادرة قبل بلوغهم)).

التصرُّف تكون للوصىِّ ، وينتسب المال فى هذه الحالة للوصى ؛ لأنه القائم عليه والحافظ له ، فالسفهاء غير مأمونين على المال .

فالسفيه لا حَقَّ له فى إدارة ماله حتى يرشد ؛ لأن المال فى الواقع هو مـــال كـــل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين ، وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ، فإنْ لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حَجْر ، ذلك لأن أىَّ شر ينتج من سلوك لسفيه بماله إنما يعود على المجتمع.

وفـــى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شىء ، فكـــذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك ، فتكنز كل ما تكتسب ولا تنفق إلا مـــا يمسك الرمق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآنُ هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : لا تمـــسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون مَلُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدِّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتـــصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقَّى هو في حـــياته ، وأنت مُعْدَم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أنْ تدخر جزءاً من كَسْبك ، يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

فالحـــق ســـبحانه يقـــيم فى هذه الآية موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان

سلامة حركته فى الحياة ، فلا تجعل يدك التى بها العطاء مغلولة ، أى : مربوطة إلى عُنقك ، وحين تُقيِّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل قوله سبحانه : ﴿ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فالنهى هنا عن كل البَسْط . إذن : فيباح بعض البَسْط ، وهو الإنفاق فى حدود الحاجة والضرورة ، وبَسْط اليد كنايةٌ عن البذل والعطاء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

والهداية هى الطريق المُوصِّل للغاية من أقرب وجه وبأقلّ تكلفة ، وهو الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، والحق سبحانه يهدى الجميع ، ويرسم لهم الطريق ، فمَن اهتدى زاده هدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن المتتبِّع للمنهج القرآنى يجده يُقدِّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط فى كل شىء : فى العقائد ، وفى الأحكام ، وفى القصص .

إذن : لا تبسط يدك كُلَّ البَسْط ، فتنفق كلَّ ما لديك ، ولكن بعض البسط الذى يُبقى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقى بحياتك ، فالإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة ، ويسهم فى إنمائها ورُقيِّها ، على

خـــلاف القـــبض والإمـــساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة : وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها .

إذن : لا بُـــدَّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، ولا بُدَّ أن يكون الإنفاق معتدلاً ، حتى تُبقى على شىء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقى به وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس .

فالمبذّر والمسرف تجده فى مكانه : لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة ، كـــيف وهو لا يُبقى على شىء ؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة ، ونُوفر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى .

وتأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير :﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ ﴾ [الإســـراء] ، ووَضْـــع القعود يدلُّ علـى عدم القدرة على القيام ومواجهة الحـــياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء ، فكلمة تقعد تفـــيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فـــيها ؛ لـــذلك قال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ .. ۝٩٥ ﴾ [النساء]

وقَوْل الحق ﴿ مَلُومًا ﴾ أى : أتى بِفعْل يُلام عليه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولاده وأهله ، وكذلك المُمسِك البخيل ، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن .

و﴿ مَّحْسُورًا ﴾ أى : نادمـــاً على ما صرْتَ فيه من العدم والفاقة ، من

قــولهم: بعيــر محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فــإنْ قبــضتَ كــلَّ القبض فنت مَلُوم ، وإنْ بسطْتَ كلَّ البسط فتقعد محــسوراً عــن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها . إذن : فكلاَ الطرفين مذمــوم ، ويترتب عليه سوءٌ لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أنْ يسير الإنسان قَواماً ، وسطاً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالـــى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ، ينظم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابسُطْ يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سير عجلة الحياة وتنشيط البــيع والشراء ، لكن ليس كلَّ البسط ، بل تُبقِى من دَخْلك على شىء لتحقق طمــوحاتك فــى الحــياة ، وكــذلك لا تمسك ولا تُقتر على نفسك وأولادك فــيلومونك ويكــرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى هو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ولــو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كلَّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه

سبحانه ، كما قال فى الحديث القدسى [1] : ((يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته ، فأعطيتُها له ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كمِغْرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر . ذلك أنّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون)) .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فالله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خَلْقه بقَدَر ، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كلَّ القبض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناسِ ، وحدثت بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجاتُ الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ويشعر كلُّ عضو فى المجتمع بأهميته ودوره فى الحياة .

والحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة فى مجال ، وأنا صاحب موهبة فى مجال آخر وهكذا ، ليظلَّ الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنىّ صاحب المال الذى ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧)

يُحوجه اللهُ لأقلّ المهن التى يستنكف أنْ يصنعها ، ولا بُدَّ له منها لكى يزاولَ حركة الحياة ، والحق سبحانه لا يريد فى حركة الحياة أنْ يتفضّل الناسُ على الناسِ بل لا بُدَّ أن ترتبطَ مصالحُ الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق لا يبسط لعباده كلَّ البَسْط ، ولا يقبض عنهم كلَّ القبض ، بـــل يقبض ويبسط : فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ، لذلك ارتضى هذا الاعـــتدال منهجاً لعباده يُنظّم حياتهم ، وعلى العبد أنْ يرضى بما قُسِم له فى الحالتين ، وأنْ يسير فى حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ .. ۞ ﴾ [الطـــلاق] أى : مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فليُنفق على قَدْره ، ولا يـــتطلع إلـــى مـــا هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحةَ فى الدنيا ، وتُوفّر له سلامة العيش .

ورحـــم الله امـــرءً عرف قَدْر نفسه ، لأن الذى يُتعب الناس فى الحياة ويُـــشقيهم أن تـــرى الفقير الذى ضُيِّق عليه فى الرزق يريد أنْ يعيش عِيشَة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .

فلو تصوَّرنا مثلاً رميلين فى عمل واحد ، يتقاضيان نفس الراتب :

الأول : غنىٌّ ، وفى سَعَة من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ، ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فـــإذا دخـــلا محلاً لشراء شىء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وضعه الوظيفى بل إلى وضعه ومستواه المادى فيشترى بما يتناسب معه ، ولا يطمع

أنْ يكون مثل زميله ؛ لأن لكلٍّ منهما قدرة وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيمانى المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويرضى بما قَسَمه الله له ويعيش فى نطاقه غيرَ متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيتَ بقدرى فيك ، فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا فى الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكَمْ من أُناسٍ كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رضوا بما قسمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدَّل حالهم إلى سَعَة وترفٍ .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع الإنسانُ نفسه دائماً فى مقلم الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة، فيظن أنه أصيلٌ فيها .

والخيبة كلّ الخيبة أنْ ينسى الإنسانُ أنه خليفةٌ لله فى الأرض ، ويظن أنه أصيلٌ فى الكون ، فأنت فقط خليفةٌ لمن استخلفك ، ممدود مِمَّنْ أمدَّك ، فإياك أن تغترَّ ، وإياك أنْ تعيش فى مستوى فوق المستوى الذى قدَّره الله لك

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضلَّ الكون كله لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُوَلاً ، فالذى وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً ، والذى ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنة من سُنَن الله فى خَلْقه لِيذُكَّ فى الإنسان غرورَ الاستغناء عن الله ، فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لَمَا استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقنى ، ولو متّعه بالصحة دائماً لَمَا استمتع الكونُ بلذة : يا رب اشْفِنى . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه ، محتاجاً إليه ، داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق] فالحاجة هى التى تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه . فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البسط ، فيعطيهم كلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كلّ القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطى بحساب وبقدر ، لتستقيم حركة الحياة .

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ .. ۝٢٧ ﴾ [الشورى]

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ ﴾[الإسراء]

فلو لم يُوزَّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فمن بُسِط له يستغنى عن غيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ ضُيِّق عليه يتمرد على الكون ، ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

أما إذا علم الجميع أن هذا بقَدر الله وحكمته ، فسوف يظل الكونُ المخلوق موصولاً بالمكوِّن الخالق سبحانه .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. ۝٣٠ ﴾ [الإسراء] ملمحٌ لطيف ، فربك يا محمد وأنت أكرم الخَلْق عليه ، ومع ذلك بسط لك حتى صِرْت تعطى عطاءَ مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربطَ الحجر على بطنك من الجوع .

فإنْ كانت هذه حاله ﷺ ، فلا يستنكف أحدٌ منَّا إنْ ضيّق اللهُ عليه

الرزقَ ، ومَنْ منَّا ربط الحجر على بطنه من الجوع ؟

لقـد جاء القرآنُ لأمة وسط بالأمور الوسط فى كل شئون الحياة ، ففى قمـة المسائل وهى الأمور العقدية مثلاً يقف الإسلامُ موقف الوسطية بين مَنْ ينكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة ، فينفي هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفـي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخص هذا المنهج الاقتصادى فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فالمُمسك المُقتِّر الذى يقبض يده عن الإنفاق يتسبب فى ركود البضائع وتوقُّـف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفى التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه ، ولا يبقى على شيء يرتقى به فى الحياة ، فإذا لـم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذى فوَّتَ عليك فرصة الترقى مثل الآخرين .

ويُـروى أن عبد الملك بن مروان لمَّا أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر ابن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه فى الحياة : يا عمر، مـا نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين : نفقتى حسنةٌ بين سيئتين ، ثم تلا هذه

الآيـــة : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فعلـم الخلـيفة أن زوج ابنته يسير سيراً يضمن له ولزوجته مقومات الحـياة ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع ، وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذى ينفق كل دخله لا يستطيع أن يرتقى بحياته وحياة أولاده ، لأنه أسرف فى الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبنى مثلاً بيتاً أو يشترى سيارة .. الخ .

وقـد كان من وصايا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لولده عاصم : كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقته (أى : أصبح قديماً بالياً) ولا تجعل كلَّ رزقك فى بطنك وعلى جسدك .

حتـى إذا أردتَ أن توصى وصية من مالك فكُنْ وسطاً متوازناً ، فعن سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى ﷺ يعودنى وأنا بمكة . قـال : يرحم الله ابنَ عفراء . قلتُ : يا رسولَ الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : « فالثلث والثلث كثير ، إنك إنْ تدعْ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس » .

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى ، فربُّك عزَّ وجلَّ خلقك وخلق لك مقومات حياتك وحدَّ لك الحلال والحرام ، فإذا حاولتَ أنت أن تزيد فى جانب الحـلال مما حرَّمه الله عليك ، فهذا إسرافٌ منك وتجاوز للحدِّ الذى حدَّه لك ربك ، تجاوزت الحد فيما أحل لك وفيما حرم عليك .

وقد يأتى الإسراف من ناحية أخرى ، فالشيء فى ذاته قد يكون حلالاً

لكـــن أنت تأخذه من غير حله ، فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن الله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حرم إلى شيء أُحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم .

قـــال الحـــق ســـبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف] . وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم] .

إذن : فربُّك لا يُضيق عليك وينهاك أن تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحل لها ، كما يلومك على أن تحلل ما حرم عليك لأن ذلك فى صالحك .

وكمـــا يكون الإسراف فى الطعام والشراب وهما من مُقومات استبقاء الحياة ، يكون كذلك فى استبقاء النوع بانزواج والتناسل إلى أن تقوم الساعة ، فجعـــل الحـــق ســـبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَن تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف .

وحيـــنما ذهـــب عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ ، وقد أراد أن يـــذهب ويتنسك ويسيح فى الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله .ه إننى أريد أن أختصى . أى : أن يقطع خصيتيه ، كى لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال رسول الله ﷺ له : ((يا عثمان خصاء أمتى الصوم)) .

ولـــذلك قال ﷺ فى شأن مَنْ لم يستطع الزواج : ((يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء)) .

وقـــد رُوى أن رسول الله ﷺ ذكَّر الناس وخوَّفهم ، فاجتمع عشرة من

الصحابة في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أنْ يصوموا النهار ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفراش ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا يقربوا النساء ويَجُبُّوا مذاكيرهم .

فكان التوجيه النبوى أن حَمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال : ((ما بـــالُ أقـــوام قالوا كذا وكذا ، ولكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوَّج النساء ، فمَنْ رغب عن سنتى فليس منى)) .

إنه خيط واحد يربط كل ذلك ، وهو أن يكون الإنسان ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] .